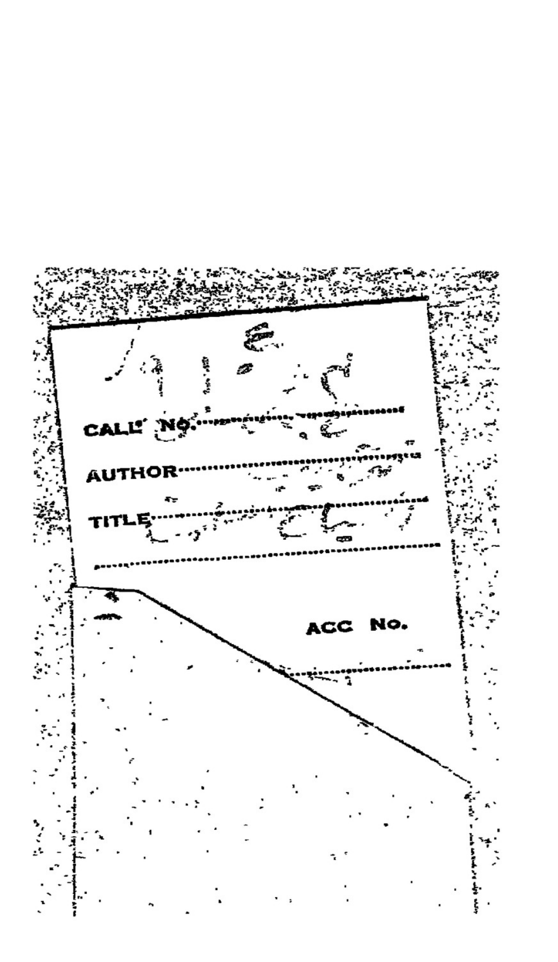
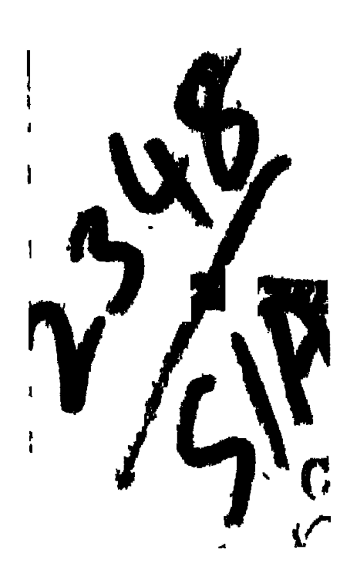
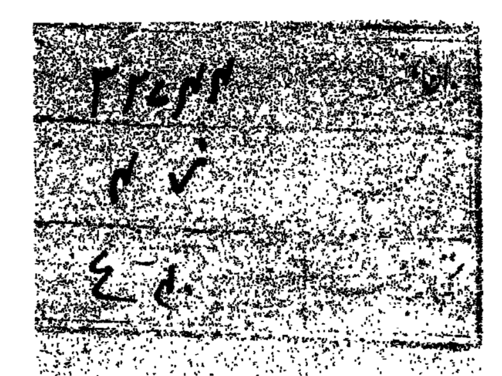
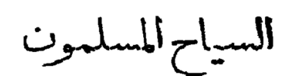

CALL No.
AUTHOR
TITLE
ACC No.







السياح المسلمون

ترجمه الخطبة التي القاها في الجمعية الخديوية
الجغرافية يوم ٢٧ مارس الماضي

حضرة المفضال محمود بك سالم
صاحب مجلة عرفات الغراء

استخلصها من « الواعظ » وطبعها على نفقته

محمد حبيب
صاحب المعرض العام بشارع غيط العدة بمصر
ومدرس اللغات الانكليزية والعربية

طبعت بمطبعة الواعظ بمصر سنة ١٣٢٣

كلمة للناشر

حب الوقوف على آثار السلف فطرة غريزية في الخلف. ولتلك الفطرة أثر جميل فى رقى الامم ونهوضها فان المرء اذا نظر في حاله وماضي أبيه فرأى والده أوفى منه نصاباً فى المفاخر استخزى ان يكون بئس الخلف لنعم السلف ووجد فى نفسه حاضا يحضه على العمل لان يكون نعم الولد لنعم الوالد. وان رأى انه وازن أباه وجده فخاراً ومجدا أحب أن يكون أكرم فرع لاكرم اصل فيتطاول للمزيد. لهذا رأى حضرة المفضال محمود بك سالم صاحب مجلة عرفات الغراء ان يوالى الكتابة فى مفاخر السلف الصالحين فطرق أبوابا كثيرة منها باب «سياحة المسلمين» فى الارض والعالم كله كماء البرك راكد في مناقعه . وقد وقع بحثه في هذا الموضوع من الجمعية الخديوية الجغرافية موقعاً عظيماً فطلبت اليه ان يلقى فيه خطبة فلبي الطلب وألقى خطبته بالفرنسية في قاعة الجمعية يوم الاثنين ٢٧ مارس الماضى في جماهير ساقهم الشوق لاستماعها ومن بينهم سعادة فخري باشا ناظر المعارف وفضيلة الشيخ محمد

عبده مفتى الديار المصرية وكثير من عظماء الرجال وا كابر
السيدات الاوربيات. وقد ترجم الواعظ الاغر هذه الخطبة
الى العربية ونشرها فى الاسبوع الماضي فرأيت من الناطقين
بالضاد عوالم يجدون فى طلبه شوقاً للاطلاع عليها ولكن
على غير جدوى لان الواعظ لا يباع ولا يوهب. لهذا بدا لى
ان استخلص منه تلك الخطبة وأطبعها على نفقتي في كراسة
على حدة وأقدمها للراغبين فيها وجل قصدي ان يطلع الخلف
على ما كان للسلف من مآثر لعلهم يتشوفون لها ويتشوقون
اليها وبالله التوفيق محمد حبيب

السياح المسلمون

وعدنا القراء ان نأتيهم بترجمة الخطبة التي ألقاها على الجمعية الخديوية الجغرافية بدعوة منها حضرة العالم المطلع والباحث الموفق عزتلو محمود بك سالم صاحب جريدة عرفات الغراء في موضوع سياحات المسلمين المتقدمين ونشاطهم للسير في الارض للعظة والاعتبار ائتمارا بأوامر الله عز وجل في قرآنه الكريم غالباً والافادة والاستفادة بالتجارة تارة والعلم تارة أخرى . وقد كانت النية ان نأتي في ترجمة هذه الخطبة بموجزها ولكننا رأينا الصحف المحلية اهلية وأجنبية خلطت فيما استخلصت من مبانيها وغلطت فيما نقلت من معانيها خلطاً كثيرا وغلطاً كبيرا فحرفت بعض الكلم عن مواضعه مرة وقالت ما لم يقله الخطيب أخرى لهذا عدلنا عن العزم الاول وترجمنا الملخص الذى كتبه حضرة الخطيب بيده وعلقنا عليه بعض الحواشي . اما الملخص الذى عربناه فسيظهر اليوم او غدا في عرفات . واما تعريبه فهو :

ألف المسلمون السياحات من زمن بعيد وترامت بهم الاسفار الى روسيا . وامتدت تجارتهم الى السويد والدانيمرك وغيرهما من الاقطار الاوربية الشمالية . وقد سبق لنا ان كتبنا في هذا الموضوع بمساعدة صديقين آخرين ثلاث

مقالات نشرت فى مجلة محلية(١)٠فلما قرأها جناب الدكتور يونولا بك سكرتير هذه الجمعية الخديوية خطر بفكره أن عرض هذا البحث على العالَم المصرى العالِم يفيد فاقترح علينا أن نلقي فيه خطبة وجيزة وغرضه من هذا حث الوطنيين على مد يد المساعدة للاجانب في الامور التى هى من دائرة المعارف الجغرافية ٠ وكذلك خطر لنا ان هذا الاقتراح قد يولد في ذهن أحد اعضاء هذه الجمعية العظيمة فكرة الاخذ فى استقراء هذا الموضوع واستقصائه ولا بدع فان الجمعية الخديوية هى اكبر وأشهر جمعية جغرافية توجد فى ارض اسلامية ، كما لا ريب ان سياحات المسلمين الاولين منهم والآخرين تدخل فى دائرة أعمالها

والمواد التى كونا منها موضوع هذه الخطابة استخصاناها على الاخص من مؤلفات المستشرق الالمانى (جورج ياكوب) الاستاذ في مدرسة «جرايفسڤالد» الجامعة فى بروسيا وراجعنا لهذا الموضوع كذلك مؤلفات أخرى بين فرنسية وامريكية

---

(١) هي المقالات التى نشرت في الواعظ تباعاً بعنوان «سياحات المسلمين في شمال اوروبا» ترجمة عن عرفات

وقد صنف المسلمون كثيراً من الكتب الشاملة للسياحات والجغرافية والعلوم المرتبطة بها . والفضل للمستشرقين الاوربيين في استظهار هذه المؤلفات . وهم بهذا يشتغلون لتجديد ما أخلقت الايام من مجد الاسلام

اما « علماؤنا » فهم فى سبات عميق يمنعهم الآن من القيام بأى عمل مفيد

ولاجل ان تظهر أهمية البحث فى الكتب الاسلامية سعياً وراء تقدم العلوم نذكر هنا الفقرة الآتية رواية عن « سيديو » :

... « ولم يكن تقدم العرب في الجغرافية الرياضية (١) اقل منه في غيرها من فروع هذا العلم . فانه لما بدا للاستاذين «سانسون» و«دي ليل» فى اواخر القرن السادس عشر ان يخطئا الجداول التى وضعها بطليموس بياناً لاطوال البلاد وعروضها وغير ذلك من اوضاعه الجغرافية لم يكن أحد

(١) المراد بالجغرافية الرياضية ما كان منهاله علاقة بالعلوم الرياضية كدورة الارض وكريتها وقياس أبعادها الخ

من العلماء ليشك ان العرب سبقوهما الى تصحيح خطأ ذلك الجغرافى السكندرى» (٢)

واني لأعترف ان خطابتي فى هذا الموضوع ليس فيها شيء جديد بالنسبة للمستشرقين المشتغلين بالعلوم الجغرافية ولكن قد يكون فيها بعض افكار تفيد جمهور العلماء على العموم. وقد قصرنا البحث على الوجهة «الاسلامية» المحضة. وعليه فاذا جئنا بعبارة يراها البعض مخالفة لذوقه فانا لنرجو ان لا يأخذها علينا أحد وان لا يغضب منها احد



قلنا السياح «المسلمون» ولم نقل سياح العرب او غيرهم لان العرب والفرس والبربر والترك وسائر الاجناس

(٢) هنا موضع الاستشهاد والمغزى ان المسلمين سبقوا زعماء التقدم العلمي الى كثير من الحقائق العلمية بعدة قرون وكانوا يبنون أعمالهم الجغرافية على آساس صحيحة بينا كان الاوروبيون يبنون أعمالهم على آساس مختلة ولو أن هؤلاء طالعوا كتب المسلمين ما اختطبوا في أمرهم هذا ٨٠٠ سنة كذلك الحال فى غير هذا الشأن قد يكون فى كتب العرب ما يخرج من ظلمات يتخبط فيها أهل هذا العصر فلا يهتدون . فالبحث فيها مفيد

الاسلاميــة لم يفلحوا فى عمل الا بصفتهم «مسلمين» . وذلك لان هذه الامم جميعها لم تعل الا بالقرآن ولم تسفل الا بتركه واطراحه . وليس فى أدوار الانحطاط سياحات مفيدة ولا سياح يسيحون لخير الانسانية

والاوربيون ينسبون ابداً مفاخرنا للعرب فيقولون سياح العرب، وتمدن العرب ، وعلوم العرب، وتجارة العرب ، الخ . وهو وهم أوقعهم فيه ان علماءنا وسياحنا وحكامنا يستعملون اللغة العربية . وداعية ذلك حاجتهم لفهم القرآن . ولـكن ليت شعرى ما كان مصير اللغة العربية نفسها لولم يجهد الفرس جهدهم فى تدوينها مثلا ؟ . . وما كان مصير السياسة الاسلامية اذا لم يكن الترك حماة القسطنطينية وهم بحمايتها يحمون المصريين والفرس والعرب انفسهم ؟ ومن هنا يتبين ان كل مأثرة لهذه الامم سببها الاسلام والفضل فيها للقرآن . ولا نقصد بهذا الغض من فضـل العرب ولا الحط من أقدارهم . حمانا الله ، فانما نريد ان الاسلام جامعة قوية عجيبة لا يفيدها الا العاملون منها بصفتهم مسلمين اما العـاملون بصفتهم ممثلين جنس من أجناس الناس فلا يعود عليها منهم الا الضرر والانحلال

٣

يحق للسامع ان يندهش من سماعنا نتكلم عن « سياح» مسلمين ويحق له ان يقول: عجبا ! أو كان في المسلمين سياح كغيرهم من الامم ؟ . ولا غرو فان حالتنا الآن مختلة أشد الاختلال . فليس لنا طرق موطدة ولا وسائط للمواصلة ممهدة ولا بريد ولا هيمنة على الامن تحوط الرائح والغادى. وهذا الخلل شائع في كل مكان حتي فى الحجاز، تلك الارض (الاسلامية) المحضة

ولولا الاورويون ما عرف جيلنا الحاضر ان في الصين وجزائر الفيليبين ومدغشقر وغيرها عشرات الملايين من اخواننا المسلمين يعيشون وينمون .

ولولا الاوربيون ما عاشت هذه الجمعية الخديوية الجغرافية نفسها ولا أثمرت ما أثمرت . وان فيها لأقوى دلالة على موتنا فانا لو كنا أحياء لكنا مادة كيانها وروح حياتها

بيد ان المسلمين فى العصر الاول أيام اتباعهم للقرآن كانوا في نظام تام وامن عام وكانت لهم الطرق المطروقة ووسائل

المواصلات السريعة والبريد المنظم العجيب

وكان الاسلام يومئذ نجما تجله عيون الامم الاجنبية وتكبره حتي ان بعض امبراطرة الصين وصف جلاله فقال : « خليفته ملك ملوك الارض ومملكته هى المملكة الوسطى (١) الحقيقية » وفي تلك الايام لم يكن الاوربيون الذين هم اساتذتنا اليوم الا تلامذة لنا . واليك شاهداً من اقوال المؤرخ الشهير « جيزو » رئيس وزراء « لويز فيليب » فى كتابه « تاريخ التمدن فى اوروبا » .

(ان التأثير الذي أحدثه الصليبيون في المسلمين وخفظته كتب السير القديمة لما يدعو الى التأمل . فقد كان المسلمون أول الامر ينظرون الى الصليبيين نظرهم لاشد الناس همجية وأكثرهم خشونة وأعرقهم وحشية واكبرهم جهلا . اما من جهة الصليبيين فقد دهشهم ما كان للمسلمين من سعة في الثروة وكرم في الاخلاق . ثم لم يمض الا القليل حتى تواترت المواصلات بين الفريقين واتسعت حتى صارت اهم من ان تعد من الامور المعتادة)

(١) الجغرافيون يكنون الصين بمملكة ابن السماء والمملكة السماوية . وهذه الكنية لا يعرفها الصينيون أنفسهم ولا يدعونها اللهم الا ان كانوا قرأوها في صحف الاوروبيين وكتبهم فى هذا العهد الاخير . وانما هم يكنونها بالمملكة الوسطي لانهم يعتبرونها وسطا في الارض وغيرها أطراف لاأهمية لها . ولهذا الاسم عندهم منزلة كبري

وللدلالة على انحطاط أوروبا أيام عظمة الاسلام نذكر أن هرون الرشيد أهدى الى (شارلماني) امبراطور الفرنجة في وقته ساعة من دقيق صناعتها انه اذا حانت الساعة الواحدة مثلا خرج منها فارس فدق ناقوسها مرة، واذا حانت الثانية خرج فارسان فدقاه دقتين وهكذا حتى اذا حانت الرابعة والعشرون خرج أربعة وعشرون فارساً فدقوا الناقوس اربعاً وعشرين دقة . ولم يوجد في المملكة المقدسة الرومانية على طولها وعرضها رجل واحد يستطيع ان يدرك تركيبها . ولو ان اوروبا جاءتنا اليوم بآلة التلغراف اللاسلكي لرأت منا كثيراً يحلون رموزها ويفكون طلاسمها بل ويقلدونها فيصنعون مثلها ان عز عليهم ان يحذوا حذو مخترعها في ابداع احكم منها

وعلى هذا فلا ينبغي لأحد قط ان ينظر الى الامم المتأخرة بعين العظمة والكبرياء فالايام دول . ولكل دولة اطوارها من رفعة وانحطاط ومثل الامة طال بها الضعف كمثل رجل تمادت به الايام وهو مريض فبلغ الظن بمن شاهده وهو في هذه الحالة ان السبب في عزة شفائه فساد

بنيته وأصل فطرته. ولئن حدث الذين رأوه وهو فى شدة عنتر وقوة هرقل بما كان عليه من عافية ضافية لكذبوا تكذيباً

حكي الاستاذ جورج ياكوب أن رحالة مسلما يعرف (بالعذرى) رحل من قرطبة الى البلاد الواقعة على بحر «بلطيق» ولما وصل الى «ميانس» في وسط المانيا التقى برحالة مسلم آخر وافد من بغداد عن طريق روسيا . وفى أنباء ذاك الرحالة الاندلسى ما يثبت ان أوروبا كانت اذ ذاك فى هوة انحطاط لا قرار لها . تلك القارة المتمدنة تعلمنا « الآن» بما انشأت من « المحاكم المختلطة » في بلادنا كيف نحق الحق ونقرر العدل . ولكنها في « تلك الايام » كان من شريعتها «النزال (الدويلو) القضائى » (١) الذى يقرر الحق للقوى على الضعيف ظالماً او

(١) وكان من شريعتها ايضاً ما تسميه القضاء الالهى (Ordalies) وهو انواع منه تفويض الحكم للنار . وذلك ان توضع مادة محرقة في كف المتهم ويؤمر بالقبض عليها ثم تلف يده وتربط أياماً معدودات اذا انقضت جيء بالمتهم ففتحت يده فان وجدت بها علامات اتفاقية عندهم كان بريئا وان وجد غيرها كان جارما . ومنه الحكم بالماء . وذلك ان يلقي المتهم فى بحر او نهر أو جدول الخ فان رسب ولم يطف كان بريئاً لان الماء طهور لايقبل الا الطهور . وان طفا كان جارما لانه ملوث يمجه الماء ويأباه !

مظلوماً : كان القاضى يعطى كل واحد من الخصمين « نبوتاً » ويأمرهما بالمضاربة ويعطي الحق للغالب على المغلوب . غير ان المغلوب كان له ان يستأنف الحكم باستئناف المضاربة مع القاضى نفسه . فاذا لم يرض بالحكم « نادى » القاضى ليضاربه فان ظفر القاضي فالويل كل الويل لذلك المغلوب . وان خاب نقض الحكم الاول وأبرمه للظافر عليه . ومن « نداء » المستأنف القاضى للنزال جعلت كلمة Appel (ومعناها النداء) أسماً للاستئناف . فهى لا تزال او يزول الوجود شاهدا عدلا على انحطاط اوروبا والمسلمون فى أرفع شأو وأعلى شأن

وذكر العذرى ايضاً انه رأى مدينة على شاطىء بحر بلطيق الشرقى جميع أهلها نساء(١) ولهذا سماها «مدينة النساء»

(١) يقول قائل : كيف استمرت هذه المدينة عامرة ولا بد للعمران من اجتماع الزوجين ؟ نقول كان اولئك النساء فارسات يركبن الخيل ويبرن الغارة على أعدائهن ويأسرن الرجال وتستأثر كل واحدة بأسير تستخدمه بالنهار علانية فى سياسة جوادها وبالليل سراً فيما فيه حفظ النوع على شرط ان يخرج من لدنها وسواد الليل يستره لانهن كن يرين مخالطة الرجال اسنع العار . فان حملت احداهن ووضعت غلاماً قتلته وان وضعت انثي أبقتها وعطفت عليها . كذلك كن يقتلن ما يزيد من عدد الاسرى عن حاجة المدينة

وروى أن بنات حواء، سا كنات تلك المدينة، « مترجلات» فارسـات كنساء داهومي في عصرنا الحاضر وليس هذا النبأ حديث خرافة كما يتوهم البعض فقد وجدله في عصرنا هذا عصر التمدن مثل في الداهومي كأنه نسخة ذلك الاصل همجية او اقبح صورة

٤

ان الواقفين على حقائق التاريخ يعرفون حق المعرفة ان تمدن المسلمين كان باهرا جداً ، وان العـلوم كانت زاهرة فى سائر أراضيهم المترامية الاطراف وأن جميع معضلات المسائل التي لا تزال قيـد أنظار الباحثين وغل ألبابهم ناقشها علماء الاسلام من قبل . ونضرب لكم مثلا . مذهب دروين : وقف عليه مفسرو القرآن وأفاضوا القول فيه ودروين وآباء دروين ضمير فى الغيب مستتر . ولمن شاء التحقيق ان يراجع تفسير الفخر الرازي . ولمن شاء أن يعرف مكانتهم في العمرانيات ان يراجع مقدمة «ابن خلدون» العمرانى الخطير ليرى ماذا ترك وهو أول « لمونتسكيو» الشهير وهو آخر !

٥

أما معارف المسلمين فى الجغرافيا ووسائلها فكفى دلالة على فضلهم أن اوربا لبثت ثلاثة قرون وهي لا تدري منها الا « ما تنسخ » من مؤلفاتهم وتأخذ عنهم باعتراف العلماء الاوربيين انفسهم . ولمن شاء الوقوف على هذه الحقيقة ان يقرأ ما كتبه « سيديو » و«جوستاف ليبون » في هذا الصدد . ولقد كان الاوربيون الى بضع سنين خلت يقتبسون من الكتب العربية ما يهتدون به لمعرفة احوال افريقية وآسية . على انا لو راجعنا ما قاله الادريسى عن منابع النيل مثلا لوجدناه مطابقا تمام المطابقة لاقوال اشهر المكتشفين فى العصر الحاضر!

ومما يؤسف منه ان المسلمين اصحاب تلك الآثار والمآثر الغراء صاروا الى هذه الحالة السوأى حالة الجمود والضعف الادبى والمادي لانهم لولا ذلك لاستفادوا من الكنوز العلمية العظيمة المدفونة في مكتبات اوروبا والصين والقسطنطينية وغيرها . فانه بعد ما اتلف المغول والصليبيون ما أتلفوا بقي « كثير» وفوق الكثير من الكتب النفيسة ولكن لا فائدة

منها الآن الا ما تلذ به «الارضة» وحدها . واذ عدمناه منهم الخير الآن فلا حيلة لنا الا الفات نظر الاوربيين الى هذه الكتب .فانهم ولا ريب يمكنهم ان يقدروها قدرها

ومما ننبه اليه ان الكتب التي وضعها الرحالة المسلمون في اسفارهم منها ما شوهت محاسنه اساطير بعضها خيالي لا حقيقة له وبعضها مبالغ فيه نقلت اليها اما من كتاب «الف ليلة وليلة» واما من موارد اخرى فيرى فيها مثلا حكايات عن جنيات محسنات عطفن على فتيان من بنى الانسان وخدمنهم في أمور من وراء العقول . وذكر امم كلهم عور . او كلهم عمالقة يطاولون النخل قامة او أقزام يطاولهم النمل هامة . وتلك العيوب ناشئة في الغالب عن جهل النساخين الذين نقلوا خطوط المؤلفين من عصر الى عصر أو عدم ائتمانهم في النقل . فكان كل واحد منهم يزيد على الاصل من عندياته ما يراه شائقا ولا ينظر للحقيقة . واسوء الحظ طبع بعض هذه الكتب على علاتها فلم تستخلص من الشوائب ولم يعلق عليها ما يميز بين ما حوت من ثمين وغث . ومع هذا فلا يجب ان تؤخذ كل ما فيها من الغرائب مأخذ الخرافات . فان منها ما

يكون حقاً ويخال اكذوبة . ولنضرب لذلك مثلا للقياس عليه :

روى السياح المسلمون ان « تبادل التجارة» مع بعض الشعوب فى شمال روسيا كان يجري على طريقة هي ان التاجر يلقى تجارته على حدود البلد ويتركها ولا حارس عليها ثم يعود في اليوم التالى فيجد بضاعته اخذت وعوضت ببضاعة اخرى تكافئها فى القيمة وكان التجار والزبائن على تمام الرضا من هذا الحال . غير ان الاوروبيين كانوا يعدون هذا النبأ حديث خرافة ويضحكون منـه حتى رأوا في ايامنا هذه رأى العين أن هذه العادة جارية في كندا . هنالك أيقنوا ان التعجل في الحكم داعية الخطأ وان ما كانوا يظنونه خرافة حقيقة لا مرية فيها . ولم نأتكم بهذا الحديث من عندياتنا انما نحن فيه رواة عن الدكتور جورج ياكوب الذى اعتمدنا عليه فى استمداد مادة هذا البحث

٦

كان للمسلمين دونائمات تجارية عظيمة تمخر فى البحر المتوسط والمحيط الهندى وقد عالجوا التجـارة ايضاً فى

الاوقيانوس الاطلانطى (بحر الظلمات) والهادى فكانت ملاحتهم تضرب من جزائر اليابان شرقاً الى بلاد الكاب غرباً. واقوى برهان على استمرار تنقلاتهم فى تلك الانحاء كثرة عدد الذين اعتنقوا الاسلام من اهالى الصين وعلى الاخص سكان جنوبها، واهالى جزائر الفيلبين، وجزائر الهند الصينى التابعة لهولندا الآن وجزيرة مدغشقر وما حولها وقد استخرج المسلمون بعض معادن افريقية الجنوبية وهم الذين أطلقوا على بلاد «الكافر» هذا الاسم وأصله «الكفار او الكفر» وانما حرفه من لا يعرفون العربية. وسبقوا الاوربيين الى طواف محيط افريقية بحرا بزمن بعيد. ووصلوا الى جزر في المحيط الاطلانطى ينطبق وصفها على «ارلندا» وعلى «تير نيف» أى الارض الجديدة بأمريكا. ولا يخفي ان ملاحى المسلمين عرفوا «بيت الابرة» واستعملوه فليس بغريب انهم تراموا الى تلك الاصقاع النائية. وقد أخبر الدكتور جورج ياكوب انهم وجدوا سنة ١٨٣٦ نقودا اسلامية فى جهة «ميودال» بمركز «ميرار» من جزيرة «اسلانده». بل وفي جروينلانده على مقربة من القطب

الشمالي ولكن لم يظهر حتى الآن كيف نقلت تلك النقود الاسلامية الى « المنطقة الجليدية » وورد في الكتب العربية ان بعض الملاحين المسلمين سافروا من « اشبونه » في المحيط الاطلانطي على نية اكتشاف « ارض جديدة » واليكم ما كتب « لويز فياردوت » فى هذا الشأن :

« ولكن هناك أمر هو أهم وأعظم الامور التى سبقنا اليها العرب. ذلك الامر يتعلق بفن الملاحة. ولست بقائل انه اكتشاف امريكا ولكن أقول انه ان لم يكن ذلك الاكتشاف فهو البحث عن دنيا «جديدة» جزموا بوجودها فيما وراء المحيط الاعظم ووقوفهم على آثار « اطلانطيد » القديمة. وتقرير هذا الموضوع يفتقر لشرح بعض مسائل تمهيدية

. . . . الى ان قال :

ان بعض الملاحين من تلك الامة العربية التى كانت تمتلك أيضاً ثغور المحيط الواقعة على جانبي البوغاز المعروف الى الآن باسم طارق قام بانفسهم قبل رحلة كريستوف كولومب بنحو ٤٧٧ سنة ان يقتحموا المحيط الاطلانطي ويلقوا بأيديهم الى مخاطره لاكتشاف ان لم يقصدوا به قصدا ثابتا معيناً ولم يكونوا منه على بينة نيرة ويقين قام به العلم وهدت اليه البصيرة كما كان شأن كريستوف كولومب فما كانت مخاطرتهم عن عمى وجهل وتسليم الاعنة للمقادير ولكن

عن ظن أكيد أن في منتهى ذلك الفضاء « دنيا » أخرى

ونجد في مؤلفات مؤرخي العرب التي ترجمها « كوند » الاسباني روايتين في هذه السياحة التي هي أول سياحة في بابها . أما الرواية الاولى فمجملة جدا واما الثانية فأكثر تفصيلا والثقة بها تكفلها شهرة مؤلفها وهو جدير بهذه الشهرة

. . . . الى ان قال :

وهذه المقارنات تكفي للدلالة على ان ملاحي العرب الذين أبحروا من أشبونه (عاصمة البرتقال اليوم) قبل كريستوف كولومب بعدد ٤٧٧ سنة لاكتشاف في البحر الاطلانطي المسمى بالعربية بحر الظلمات وصلوا حقيقة الى أرخبيلين في ذلك المحيط : هما ارخبيل أسوره وأرخبيل ماديره وان سياحتهم هذه في تاريخ هذه البقايا الباقية من أطلانطيد القديمة بمنزلة عقدة اتصال تربط اكتشاف البرتقاليين باكتشاف الفينيقيين أي العصر الجديد بالعصر القديم . وعلى هذا فالعرب سبقوا بالعزم على الاقل وبالفعل بعض الفعل جميع ملاحي القرن الخامس عشر بنحو أربعمائة سنة ووضعوا من ذلك الحين أول علم للهدى في تلك الطريق العظمى التي وصل بها « كريستوف كولومب » و « فاسكودي جاما » الى غرضهما المقصود »

ولا يزال حتى الآن للمسلمين دونانمات تجارية بل وعمارات حربية ولكن صغيرة فقد روى الاستاذ « ايليزيه ريكلوس »

أكبر جغرافي الفرنجة في هذا العصر أن اخواننا مسلمي جزائر الفيليبين اجتمع لهم في القرن الماضي «مائة ألف» بحار في زمن واحد . نعم ان الفيليبين بلغوا الغاية القصوى من الشجاعة ومن المهارة فيما يختص بالفنون البحرية . ولكنهم وا أسفاه حرموا الحكمة في السياسة والكياسة في الدهاء كباقي المسلمين الآن . وهو سبب خذلانهم امام الاسبان . يدلكم على مبلغ الخلل الذى ساور المسلمين المساكين قصص قصه كاتب أمريكى هاكم روايته :

« كان على جزيرة من أهم الجزر المعمورة بالمسلمين أمير وطنى شاب. وكان قبل غارة الامريكيين فى حرب دائمة مع الاسبان ولما اعي الحاكم الاسبانى اخضاعه لسلطانه بعث فاستحضر والدته لديه وفاوضها في الصلح فلم تأت المفاوضات بفائدة . هنالك عمد ذلك الحاكم الخادع الى حيلة أخرى : هي انه دعا اليه رجلا من أهالي تلك الجزيرة وكساه كسوة أوروبية وألبسه طربوشاً ثم قدمه اسكان الجزيرة واهما انه «مختار سلطان القسطنطينية» عليهم ' فنجحت حيلته نجاحا باهراً وطرد الامير وحل محله ذلك الخدعة . وسمى

« مولانا هرون الرشيد »

ومن هذا الجهل المطبق بالامور السياسية تفهمون كيف ان قوة بحرية بلغت من العظم هذا المبلغ الجسيم لم تصل قط الى شيء مما يصل اليه أقل منها . وقد دمر الاسبان اكثر أساطيل المسلمين الفيليبيين من عهد ليس ببعيد . وحجتهم في هذا زعمهم أن سكان تلك الجزر « قرصان » ولا غرابة فان المسلمين في نظر بعض عمال المستعمرات الاوروبيين «قرصان» اذا دافعوا عن حياتهم و« نخاسون » اذا تعاطوا التجارة . بل الغريب ان أوربا ليست على بينة مما يعمل باسمها في تلك البحار القاصية . واغرب منه ان تعد بحارة اليونان باغارتهم على المملكة التركية « شجعانا وأولى حق » والفيليبيين بدفاعهم عن أنفسهم ضد الدولة الاسبانية « قرصانا معتدين » مع ان امرهما واحد ولكن ... (١) لهذه الحال اضطرت البقية الباقية من سفن المسلمين المواخر في الاقيانوس للاحتماء بظل الراية الفرنسية او اللواء الانكليزي المقرون بالنصر على الدوام (!) كبواخر اعراب سنغافورة مثلا ولولا ذلك ما بقي للمسلمين سفين

(١) يا بخت من كان النقيب خاله !

وبالرغم عما كان لسلفنا الصالح من آثار مشهودة في الملاحة لايزال من أدعياء العلم فينا من «يفهمنا» ان الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «من نزل البحر مرتين فقد كفر» ويزعم «الطرز الجديد» من فلاسفتنا الاحداث انهم قادرون على تأويل هذه الكلمة المكذوبة على هذا الخليفة العظيم ولئن سألتهم قالوا انه لم يكن يدرك الفائدة العائدة من الاسفار فى البحار !! ولكن جميع هؤلاء الغوغاء مفتونون مغبونون وعمر لم يفه قط بهذه الكلمة. وأصل هذه الاكذوبة راجع الى بعض الفرق الدينية الصغرى الذين يكرهون عثمان ومعاوية. وتحرير خبرها ان عثمان اجتاز البحر الاحمر في هجرته من مكة الى الحبشة. ومعاوية قطع بحر الروم من الشام الى قبرص؛ ثم رجعا في البحر. وتلك هى المرة الثانية. فصارا بذلك كافرين (!) على بطلانهم. ولما كانت تلك الفرق تبغض عمر بغضها عثمان ومعاوية فقد ادخلته في زمرتهما بهذه الفرية الخاطئة. وقد شرح «كيمون» احد أعداء الاسلام الالداء هذه الكلمة فى كتابه «الداء الاسلامي وطرق محوه» ووهم انها آية من القرآن واستنتج

منها عدة نتائج ماهي الا شاردة فاسدة

٧

وكما كثرت أسفار المسلمين فى البحر كثرت في البر فقد ظعنوا الى الصين عن طريق تركستان . وضربوا في الارض الى الهند وأفريقية . ولكن موضوع كلامنا الآن قاصر على علاقاتهم بأوروبا . والرجوع في هذا البحث الى العلماء الروسيين والاسكاندناويين والالمانيين والهولانديين من الواجبات لانهم كشفوا لنا عن كثير من الامور المفيدة فيه

من ذلك انه وجدت كنوز عديدة من النقود الاسلامية في كثير من الاقطار الاوربية الشمالية وخاصة فى روسيا والمانيا والسويد وقد أحصى الاستاذ (تورنبرج) سنة ١٨٥٧ المحلات التى أخرجت منها النقود العربية في بلاد السويد وحدها فبلغ عددها **١٦٩** محلا . وأحصى الدكتور « هانس هيلد براند » سنة ١٨٧٣ قطع النقود الفضية العربية التي عثر عليها فى جزيرة جوتلانده وحدها على صغرها فأربى ما أحصاه على « **١٣** ألف » قطعة

وكانت تجارة المسلمين في اوروبا الجنوبية وأوروبا

الغربية أقل منها فى بقيـة هذه القارة لأن التنازع القائم في تلك الجهات اذ ذاك بسبب القسطنطينية لم يدع للصلح محلا فما عرف السلام هناك الا مهادنة حتى فتح الله للمسلين هذا الحصن المنيع . اما الاقطار الصقلبية الشمالية فكان لتجارتنا فيها حركة شديدة . وكان لتجارتنا بها تأثير عظيم اعرب عنه دخول كثير من أهل تلك البلاد في الدين الاسلامي وأوضحه ان نقود كثير من الحكومات الاوروبية نقشت عليها كتابات باللغة العربية وآية ذلك انهم وجدوا نقودا بلغارية وألمانية ونورماندية وانكليزية سكسونية موشاة بخطوط «كوفية» جميلة وزاده وضوحا ان أسماء كثير من الملابس والاقمشة ترجع لاصل عربى . مثل jupe (جوب) اسم ذلك الفستان الذى تلبسه الاوربيات فان أصلها «جبة» علما ثناه وقد كثر ما نقل القوم من الكلمات العربيـة الى لغتهم حتي انهم وضعوا لها قواميس ضخمة

وكان تبادل التجارة جاريا بضد مجراه الآن . فكانت اوروبا تأخذ من الاسلام نتائج صناعاته وثمرات ابتداعاته ولم يكن لديها ما تعطيه غير المواد الاولية الفطرية كالفرى والفواكه

وسن الماموث (١) وما شاكلها وكان الرقيق أروج تجارتها وأربحها لان شعوبها وقبائلها كانوا على الدوام فى حرب مستمرة وكان همهم خطف بعضهم أطفال بعض من بنين وبنات وارسالهم مرحلة فمرحلة الى اسبانيا أو القسطنطينية او مدينة بلغارى الواقعة على نهر فولجا ليباعوا فيها أرقاء. ومن هذه الاسواق الثلاثة دخلت الفتيات الاوربيات الفاتنات اراضى الاسلام ليدلهن بجمالهن عظماءنا والملوك وبهذه الوسيلة كن ينتقلن في قصور أمرائنا واغنيائنا من «رقيقات» الى «ملكات» من حيث لم يكن يحلمن بهذه السعادة

٨

ان كثرة عدد الرحالات المسلمين واضحة بينة فى انتشار الدين الاسلامي بين الامم المختلفة ونخص منها الصين وماليزيا والسودان ومع هذا فقد ذكر ابو الفدا المؤرخ الشهير ٦٠ من أشهر الرحالات اصحاب التآليف فى الاسفار وكلهم من اهل العصور السابقة على عصره

(١) حيوان على شكل الفيل وأكبر منه خلقة محى أثره من العالم فلا وجود له الان

ومن كبار الرحالات «ابن بطوطه» وما منكم الا من سمع به . وخطة رحلتـه أنه سافر من طنجة فزار افريقية الشماليـة ؛ ثم رحل من مصر الى فلسطين ثم مكة ، ومنها الى القسطنطينية وروسيا ؛ ثم توجه الى الهند عن طريق تركستان ونزل في دهلي فحمله سلطان تلك المملكة مهمة الى امبراطور الصين ؛ ووصل الى بكين بعد أن زار سيلان وصومطره وجاوه . ثم عاد الى وطنه عن (طريق البحر) . وقد مكنته الفرص بعد ذلك من زيارة اسبانيـا وتومبوكتو والسودان قبل موته

ويرى المتأمل في سـير الرحالات المسلمين وتراجم حيـاتهم ان الحـكومة لم تهتم قط بأن ترسلهم بصفة « رواد مستطلعين » ونادراً ما كانت تستخدمهم بصفة « سفـراء » كما اتفق لابن بطوطة وألمعنا اليه فيما قدمنا وكما وقع أيضاً لابن فضلان وهو ان بلغار فولجا ارسلوه في مهمة الى الخليفة في بغداد فأداها ورجع اليهم بالجواب المنتظر . اما اتخاذهم للريادة والاستطلاع فأمر لم نعرفه حكومـة مسلمة الا في زمن الحرب ولم تكد به الا للامم « المحاربة لها » فقط وذلك

لان التجسس في غير زمن الحرب كان يعتبر من أشنع الخيانة والعداء . وقصارى القول ان استخدامهم في الريادة لم يكن الا فى أيام الحرب كاستخدام العيون الحربية الآن

٩

من المهم في موضوعنا هذا ان نعرف « الباعث » الذى كان يغرى المسلمين بالسياحة ويزيد عدد سياحهم . نرى اليوم الحكومات وجماعات انتشار الدين والمصانع الكبرى والجمعيات العلمية تبث عوامل التمدن في اطراف البلاد واكنافها واذا ضربنا صفحاً « عن الآفاقين » الذين يضربون في الآفاق عن ولع بحب الاطلاع أشبه بالمرض ولا مهيج له الا تسهيل الكهرباء والبخار مصاعب الاسفار ثم ضربنا الصفح ايضاً عن الاعلاء الذين ينقبون عن جوهر الصحة الثمين في اربع جهات الارض وقصرنا الذكر على السياح الذين يركبون ظهور الاسفار « للاسباب الصحيحة » اسباب العلم لذاته والتجارة لذاتها ساغ لنا ان نقول انهم قليل . فان الرحالة الذى يسعى لتنمية مواهبه الشخصية من الوجهة الادبية والعقلية والمادية بل الذى يطوف الارض لمجرد طلب

الثروة مثلا يكاد يكون عنقاء مغرب له اسم وليس له مسمى. هذا اليوم ، اما في الايام الخالية فقد كان في المسلمين هذا النوع من السياح الذين يسيحون في الارض لمجرد العلم او محض التجارة هو الوحيد المعروف او يكاد. ولم يكن ليحدث قط نزاعاً ولا فتنة فى أى مكان حل به ولا ليثير أدنى ثائر يجلب عليه سوأ الظنون . وهنا موضع « الفرق العظيم » بين الطريقة الاسلامية والطريقة الجارية عليها السياحات الآن فقد بلغ الامر في عصرنا، هذا أن أشرف السياحين قصدا وأشدهم عن السياسة بعدا يكاد الا يخلو من التهمة ، ان صدقاً وان كذبا ، بأنه مرسل من قبل الحكومة الفلانية ليمهد لها سبيل فتح البلاد النازل بها او يوطد اسبابه ويمكنها. يقول قائل : اذا كانت سلطة المسلمين السياسية قبضت يدها عن مساعدة السياحين فأي عامل بعث في نفوسهم روح الاقدام بتلك الجرأة العظيمة ؟ . . . أقول : لم يكن هذا العامل الا « قوة القرآن » ! فانه فى كثير من آياته الكريمة يحض المسلمين على السير فى الارض . والسبب فى ذلك ان قوة الايمان تنمو به وتشتد . لان الانسان كلما سار فنظر تقلبات

الارض وما عليها كلما ازداد يقينه إن الله حق لا يتغير، واحد لا يتعدد، أبدى لا يزول . وكلما نظر في الكائنات كلما تكشف له نظامها فلا يغفل عن ذكر مبدعها البديع وعبادته. واذا نمت قوة الايمان ذكا العقل وزكت الاخلاق وفي هذا منبع احسان يفيض ولا يغيض

وللسياحات فضائل اخرى : منها انها تسهل اتحاد مسلمي الارض وتؤلف بين مختلفي الاجناس وتجعل اجانب الناس منهم أقارب كما هي فضيلة الحج

وكما امر القرآن الكريم بالسير امر النبي الامين به في طلب العلم والصحة والكسب الحلال . ومن ذلك الحديث المأثور المشهور « اطلبوا العلم ولو بالصين »

ومن هنا جعلت الشريعة للسياحين مزايا خصوصية فاوجبت على الحكومة ان تقوم بحاجاتهم بل عينت النصاب الذى أوجبته لهم عليها فأنشئت دور الضيافة للفقراء وابن السبيل في كل مكان . وأوجبت على الافراد « الضيافة » للاغراب المحتاجين وقدرت امدها ثلاث ليال . وفضلا عن هذا خففت عن المسافر الصلاة بالقصر فيها وهو ما لم تبحه لغيره

والواجب على من يريد ان يتعرف السبب فى قوة تأثير المسلمين في الامم الاجنبية ان لا ينسى خلو طباعهم من « الأَثْرة الجنسية » وامتلاء قلوبهم بالرحمة والحب لجميع أبناء آدم بلا تفريق بينهم باللون ولا تمييز بالطبقات «ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ويجب ايضا ان لا ينسي ما وسع لنا الدين بأباحة « تعدد الزوجات » . فلولا هذا النظام لكان الغريب الذى لا يصطحب أهله سبباً « للمفاسد » فى كثير من الاحيان

وجميع هذه الاعتبارات تكشف لنا سر ما حكاه بعض سياح المسلمين من بشر الناس بأقبالهم والمبالغة فى احسان استقبالهم فى البلاد التى نزلوا بها . ومن اولئك الحاكين ابن فضلان . قال : ان بلغار روسيا كانوا يكرمون وفادة التجار المسلمين عليهم الى حد انهم كانوا عند استقبالهم ينثرون الدراهم تحت أقدامهم اشارة الى التأهيل والترحيب بهم ويبتهجون بقدومهم ابتهاجاً عظيماً . اه